

إشكالية الهوية الثقافية في الجزائر في ظل العولمة

د. ميلاط نضرة

جامعة برج بوعرييج

الملخص:

لقد عرفت ثقافتنا في الوقت الراهن العديد من التغيرات التي طرأت عليها نتيجة للثقافة الغربية التي تروج لها عبر وسائل الإعلام ، محاولة صياغة ثقافة عالمية لها قيمها ومعاييرها وأنماطها السلوكية المتناقضة مع خصوصياتنا وهويتنا ، إذ تواجه مجتمعاتنا الكثير من التحديات الناتجة عن العولمة ، التي تسعى إلى استلاب وقتل الثقافات وإلغاء الدول الوطنية والشخصية والهوية الثقافية ، من خلال سعيها إلى نقل المعلومات والأفكار والاتجاهات والأنماط السلوكية التي تؤدي إلى تذويب الانتماء إلى الهوية الوطنية ومسح الشخصية المستقلة لمجتمعنا.

ولهذا فإن هذه الورقة تهدف إلى التعرف على إشكالية الهوية الثقافية في الجزائر في ظل العولمة ، من خلال استنادنا على مجموعة من المحاور الأساسية المبنية على استعراض لأهم خصائص الهوية الثقافية العربية وتأثيرات العولمة على الثقافة الجزائرية، ومستقبل هوية الجزائر الثقافية والسياسات المتبعة لمواجهة سلبات العولمة على الدول العربية.

مقدمة :

الثقافة هي الإطار والمضمون الفكري الذي يحدد للمجتمع سماته وخصائصه التي تميزه عن غيره من المجتمعات، حيث تحمل بين طياتها السمات الاجتماعية المتوازلة والمستجدة ، وقد عرفت ثقافتنا العربية في الوقت الراهن العديد من التغيرات التي طرأت عليها ، نتيجة العولمة الثقافية التي تستهدف السيطرة على وعي الإنسان والتحكم به وإعادة صياغة تفكيره وفق رؤى جديدة وأهداف جديدة وأنماط جديدة من السلوك ، تركز على توسيع وتعميم المظاهر الاستهلاكية ، وتحمل في ثناياها تذويب ثقافة الآخر وتشويش قيمه وتسطيح وعيه والتشكيك في معتقده ، واستبدالها بقيم العولمة وأنماطها الاستهلاكية والسلوكية.

إن الدول المتطورة الغنية تملك وسائل اتصال قادرة على إيصال المعلومات والأفكار والأطر الفكرية والأنماط السلوكية بكل سهولة إلى كل أنحاء العالم ، ولذلك فإن التبادل الثقافي في إطار العولمة هو تبادل غير متكافئ يفتقد في مضمونه التفاعل الثقافي الإيجابي والاعتماد المتبادل ، ليتحول في الأخير إلى غزو واختراق ثقافي بهدف ترسيخ مظاهر العولمة ، من خلال تجلياتها المختلفة الاقتصادية والاجتماعية والاتصالية والإعلامية والسياسية ، وأخيرا الفكرية القيمة الثقافية ، التي تعمل على إبعاد وإقصاء الخصوصيات والمحددات الاجتماعية والثقافية ، ولذلك فالرافضون لظاهرة العولمة يشددون على حتمية تعميق التناقض فيما بين الشعوب والثقافات ، الأمر الذي سيمنحها في النهاية من تكريس وتعظيم دور الهوية الثقافية المحلية للشعوب ، كما أن هناك من يؤمن بحتمية عقلنة الخصوصية الثقافية والهوية الوطنية ، وضرورة تجاوزها إلى المستوى الذي يسمح بالتفاعل الإيجابي والتبادل الفعال مع القيم والثقافة العالمية الجديدة دون إحداث قطيعة إستراتيجية بين الماضي والحاضر.

-المفاهيم الأساسية للدراسة :

1-الهوية : دار جدل كبير بين المنظرين حول مفهوم الهوية ودلالات الانتماء التي ينطوي عليها ، وصلتها بالأنساق الاجتماعية والثقافية في خصوصياتها وعمومياتها ، غير أننا هنا سنحاول أن نركز على بعض المفاهيم المتداولة :

لفظ الهوية يطلق على معان ثلاثة : التشخص ، والشخص نفسه ، والوجود الخارجي ، حيث : ما به الشيء هو باعتبار تحققه يسمى حقيقة وذاتا ، وباعتبار تشخصه يسمى هوية ، وإذا أخذ أعم من هذا الاعتبار يسمى ماهية . ويمكن التمييز بين : الماهية والحقيقة والهوية كما يلي :

- الأمر المتعلق من حيث إنه مقول في جواب (ما هي) يسمى ماهية .

- من حيث ثبوته في الخارج يسمى حقيقة .

- من حيث امتيازها عن الأغيار يسمى هوية .

كما يرتبط هذا المفهوم بمفاهيم أخرى مثل الأصالة والذاتية .

حيث يعرف "الرجائي" الهوية بأنها " الحقيقة المطلقة ، المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على النتيجة في الغيب المطلق " . وفي الأدبيات المعاصرة تردد استعمال مفهوم الهوية لأداء معنى كلمة إدونتيتي ، والتي تعبر عن خاصية المطابقة : مطابقة الشيء لنفسه أو مطابقته لمثله .

وفي المعاجم الحديثة فإنها لا تخرج عن هذا المضمون ، فالهوية هي : حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية ، والتي تميزه عن غيره ، ويسمى أيضا وحدة الذات " (1) .

تعرف الهوية في علم الاجتماع بأنها " عملية تمييز الفرد لنفسه عن غيره أي تحديد حالته الشخصية " .

" الهوية هي خصوصية الذات وما يميز به الفرد والمجتمع عن الآخرين من خصائص وميزات وقيم ومقومات ، فميزات الفرد هي هويته ، وميزات الجماعة هي هوية الجماعة " .

" الهوية تشير إلى القدر الثابت والجوهري والمشارك من السمات العامة التي تميز حضارة أمة من الأمم عن غيرها (2) .

1-1 وظائف الهوية : تتمثل أهم وظائف الهوية فيما يلي :

- ضمان الاستمرارية التاريخية للأمة إذ لا يمكن التشكيك في انتماءاتها .

- تحقيق درجة عالية من التماسك والانسجام بين السكان في مختلف جهات الوطن الواحد .

- تمثل الهوية الجنسية والشخصية الوطنية التي تحافظ على صورة الأمة أمام الأمم الأخرى ، وذلك من خلال الحفاظ على الكيان المميز لتلك الأمة .

2- الهوية الثقافية : إن الهوية الثقافية هي تعبير عن الحاجة إلى الاعتراف والقبول والتقدير للإنسان ، ففي الهوية الثقافية تشتغل جدلية الذات والآخر ، وتعيد كل جماعة بشرية تأويل ثقافتها من خلال اتصالها الثقافية ، وعلى كائن جماعي حي يتحول ويتغير من الداخل على ضوء تغير المصادر القيمية والسلوكيات ، ومن الخارج بفعل أشكال التأثير الناتج عن علاقة الفرد بالحيث ، كما أنها كيان يسير ويتطور وليس معطى جاهز ونهائي ، وهي تتطور إما في اتجاه الانكماش وإما في اتجاه الانتشار ، وهي تعنى بتجارب أهلها وانتصاراتهم وتطلعاتهم ، وأيضا باحتكاكها سلبا أو إيجابا مع الهويات الثقافية الأخرى .

ويقول " محمد عمارة " " أن الهوية الثقافية هي القدر الثابت والجوهري والمشارك من السمات والقسمات العامة التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات ، والتي تجعل للشخصية الوطنية أو القومية ، طابعا تميز به عن الشخصيات الأخرى " .

أما " أليكس ميكشيللي " فقد شخصها بأنها " عبارة عن مركب من العناصر المرجعية المادية والذاتية المصطفاة التي تسمح بتعريف خاص للتفاعل الاجتماعي " .

2-1 الثابت والمتحول في هوية الجزائري : الهوية الثقافية ككل كائن حي ، متغيرة ، متجددة من داخلها ، عناصرها وملاحمها متبدلة باستمرار بحسب التحولات التي يعرضها المجتمع ككل ، وما يحيط به من متغيرات ، والهوية الثقافية لجموعنا الجزائري هي التي عملت على توحيد الشخصية أو تماثلها وتجانسها على مدى تاريخ طويل ، وقد قاومت مختلف أشكال الذوبان والاختراق والإلحاق على مر السنين ، وبذلك فقد حافظت على ملامح مشتركة لشخصية تنعت من الخارج ومن الداخل بأنها واحدة ولها ما يميزها عن غيرها.

ومن المهم أن نوضح بعض عناصر الثبات من التغير والأصيل من الدخيل في هذه الهوية ، فالإنسان في الجزائر لم يكن كائنا ثابتا ولا نموذجاً نمطياً بل كان على الدوام متحركاً يخوض تجاربه في علاقة بماضيه وحاضره ، يتطلع إلى المستقبل فيبني علاقاته بمؤسساته بالحيط المليء بالتحديات والضغوطات الكبيرة ، وذلك من خلال مواجهاته مع العالم والطبيعة ، فقد ظل الإنسان في المغرب العربي وفي الجزائر مرتبطاً بقيمه المتحركة وبواقعه الحي المشدود إلى المستقبل المرجو، وعلى هذا النحو تشكلت الهوية في المنطقة متخذة في أغلب الأحيان لبوساً ثقافياً ، لذلك فقد اتصفت بالخصائص التالية :

2-2- أهم خصائص الهوية الثقافية العربية (الجزائرية) :

-التوازن : أي توازن أبعاد الهوية وانسجامها ، حيث تجمع بين الأصالة والتفتح ، تعزز هذه الشخصية بذاتها وتراثها ، وفي الوقت ذاته تقدم على الحوار مع الآخر ومشاركته والأخذ منه والتفتح على حضارته.

-الانفتاح : إنها هوية منفتحة بطبيعتها ، بحيث أن كل المكونات الجغرافية والبشرية والثقافية ساعدت هذه المنطقة التي تتواجد بها الجزائر (منطقة المغرب العربي) في نحت ملامح شخصيتهم من تيارات واتجاهات متنوعة ، ومن اختيارات تجارب عديدة تؤلف بينها نظرة أصيلة للإنسان .

-الحرية والمقاومة : لعبت الجزائر دوراً فاعلاً في نشر الأفكار الحرة ، وقد عرفت المنطقة تبني سريع للمبادئ التي جاء بها الإسلام ، كما ساهموا في أهم الثورات التي عرفها العالم العاصر فناصروا حركات التحرر وانخرطوا في مقاومة الاستبداد والاستعباد فكراً وممارسة .

-الانسجام والائتلاف : لقد ساعد سيطرة المذهب المالكي في الجزائر على توطيد عرى الائتلاف بين أفراد المجتمع (3) ، وقد ساعد الإسلام على توحيد الناس وفي الأفكار والتوجهات وتحقيق الوحدة ونشر القيم الإيجابية كالتسامح والتعاون والتكافل الاجتماعي والرحمة وغيرها.

2-3 مقومات الشخصية الجزائرية : إن لهذه الشخصية ماضي بعيد يضرب بجذوره في أعماق التاريخ الجزائري القديم ، غير أنه بعد دخول الإسلام إلى الجزائر في النصف الثاني من القرن الأول للهجرة أخذت الشخصية الجزائرية بعداً حضارياً وثقافياً جديدين كل الجدة بحيث يختلفان اختلافاً جذرياً عن البعدين الحضاري والثقافي السابقين عن الإسلام وهو البعد العربي الإسلامي حيث تكون الشعب الجزائري في ظل الإسلام والعروبة تكويناً جديداً نتج من عملية امتزاج العنصرين الأساسيين من سكان الجزائر ، العنصر الأمازيغي القديم من سكان البلاد والعنصر العربي الوافد على البلاد والذي حمل الإسلام واللغة العربية إلى الجزائر ، وكان هذا الامتزاج نتيجة الاختلاط في المعيشة والحوار من ناحية ، ونتيجة المصاهرة والمشاركة في العمل من ناحية أخرى ، ونتيجة الاشتراك في التاريخ والمصير المشترك بعد أن اعتنق الأمازيغ الدين الإسلامي ومزج أرواحهم وتغلغل في أعماق قلوبهم ووجدانهم ، وبذلك أصبحوا شركاء العرب الفاتحين في حمل رسالة الإسلام إلى الناس والمحافظة عليها والتضحية من أجلها بالنفس والنفيس.

يقول "عبد الحميد بن باديس" في مقال له: "إن أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرناً ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء وتؤلف بينهم في العسر واليسر، وتوحدتهم في السراء والضراء حتى كونت منهم خلال أحقاب بعيدة عنصراً مسلماً جزائرياً، أمه الجزائر وأبوه الإسلام".

وبناء عليه فإن الشخصية الجزائرية هي شخصية عربية إسلامية وتعتبر جزءاً لا يتجزأ من الشخصية القومية للأمة العربية، وقد تكونت كما قلنا من امتزاج عنصري الأمازيغ والعرب لعدة قرون، بحيث نتج عنه عنصر جزائري جديد، وبذلك تحددت مقومات الشخصية الجزائرية وتبلورت في المقومات التالية:

أ- اللغة العربية.

ب- الدين الإسلامي.

ج- التاريخ العربي الإسلامي للجزائر.

د- الثقافة العربية الإسلامية.

هـ- الوطن الجزائري (4).

3- العولمة: كثر الحديث في الآونة الأخيرة حول العولمة أو الكوكبة أو الكونية، ولم تقتصر الاختلافات حول التسمية فقط بل مست أيضاً مضامين المفهوم ودلالاته، فهذا "روزناو" أحد مشاهير علماء السياسة الأمريكيين يحدد ثلاثة أبعاد للعولمة لا بد من أخذها بعين الاعتبار، يتعلق أولها بانتشار المعلومات على نطاق واسع وثانيها تذويب الحدود بين الدول، والثالث يتمثل في زيادة معدلات التشابه بين الجماعات والمجتمعات والمؤسسات (5).

العولمة تشير إلى "مجموعة من الظواهر والمتغيرات والتطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والإعلامية والتكنولوجية والمعلوماتية، التي تمتد تفاعلاتها وتأثيراتها لتشمل معظم دول العالم ومناطقه".

وبهذا المعنى فإن العولمة تعبر عن مرحلة تاريخية في تطور العالم، جوهرها تحقيق المزيد من الترابط والتداخل والتأثير المتبادل بين الدول والمناطق المختلفة، وهو ما يؤكد على تراجع مكانة وأهمية الحدود بين الدول تحت ضغط كثرة وتعدد الظواهر العابرة لهذه الحدود.

وهذا الطرح يدعّمه "بول فيريلو" حين يقول: "إننا نشهد الآن نهاية الجغرافيا، وذلك من حيث لا مكان منزول ولا وطن مستقل ولا ثقافة محصنة".

كما أن "صمويل هنتنغتون" الذي اشتهر بكتابه "صدام الحضارات" يقول: "أنه إذا أصرت المجتمعات الأخرى على الحفاظ على هويتها وثقافتها، وأن على المجتمعات غير الغربية - حسب رأيه - إذا أرادت أن تتحدث لغة العصر، فعلينا أن نتخلى عن ثقافتها الخاصة وتبني عناصر الثقافة الغربية الجوهرية".

ومن هنا نقول أن العولمة ظاهرة خطيرة في توجهاتها جاءت لتمجيد الإمبريالية الثقافية الأمريكية التي وصفها "ديفيد روثكوف" بأنها "الأمة الرئيسية في إدارة الشؤون الكونية وهي المنتج الأساسي للمعلوماتية وخدماتها".

أما العالمية فهي تعبير عن مجال قد يكون بعيداً عن السياسة والاقتصاد، بل هي تعبير عن التنوع الثقافي، فالعالمية تعني الاعتراف بالتبادل، بحيث يكون العالم منفتحاً على بعضه مع الاحتفاظ بتنوعاته، ولقد كانت هذه هي السمة البارزة في الثقافة الإسلامية بشكل خاص، إذ هي تعترف بالآخرين وتحترم خصوصياتهم الثقافية، فالعالمية إذن لا تعني الهيمنة الاقتصادية والثقافية وإنما تعني التنوع وانفتاح الثقافة الخاصة على الثقافات الأخرى وفقاً للمبدأ القرآني "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا" (6).

أما "عابد الجابري" فيرى أن العولمة هي بالدرجة الأولى دعوة إلى تبني نموذج معين ، عاكسة مظهرها أساسيا من مظاهر التطور الحضاري الذي يشهده العصر الحالي ، كما أنها تعبر بصورة مباشرة عن إرادة الهيمنة الأمريكية على العالم وأمرته ، إنما إقصاء لكل ما هو خصوصي وبالتالي فرض لإرادة الهيمنة ، أما العالمية فهي الطموح نحو الارتقاء بالخصوصية إلى المستوى العالمي ، وهذا الطموح مشروعا لكونه يدعو إلى الانفتاح على الآخر والرغبة في الأخذ والعطاء(7).

3-1 التجليات الثقافية للعولمة :

- صياغة ثقافة عالمية لها قيمها ومعاييرها وأطرها الفكرية وأنماطها السلوكية ، والغرض ضبط سلوك الدول والشعوب.

- الاعتداء على الخصوصيات الثقافية.

- اختلال الأنساق القيمية .

- تضخم المستويات الثقافية المتعلقة بالمثل العليا والتقييم(8).

ولذلك فإن العولمة الثقافية تعني بإنتاج وتبادل الرموز والتعبير عن هذه الرموز التي تمثل الحقائق والمشاعر والمعارف والمعتقدات والقيم ، وهي من أهم مرتكزات العولمة.

4- العولمة الثقافية : تسعى العولمة إلى تنميط الثقافة العالمية وإضفاء الصبغة الأمريكية عليها بغرض الوصول إلى نتيجة واحدة ممثلة في تنميط القيم وأطر التفكير والسلوك الفردي والجماعي من أجل تحقيق السيطرة السياسية والثقافية والعسكرية على العالم ، وهذه النتيجة تنطوي على عنصرين هامين من عناصر الهيمنة والتسلط هما القوة المادية ممثلة في المستوى الاقتصادي الذي بلغته والترسانة العسكرية العظمى ، ثم القوة المعنوية ممثلة أيضا في ضخامة الإنتاج الثقافي والإعلامي(9).

العولمة الثقافية تتضمن بلوغ البشرية مرحلة الحرية الكاملة لانتقال الأفكار والمعلومات والبيانات والقيم والأذواق على الصعيد العالمي ، وتهتم بالقيم الرمزية (اللغة ، العادات ، أنماط التفكير...) وطرق انتقالها من الهوية الخصوصية إلى الهوية المعولمة ، طمس الفروق الحضارية ، وضرورة الانتماء إلى ثقافة عالمية واحدة تستمد من الثقافة المركزية الغربية المهيمنة ، باعتبارها القاعدة الأهم والأكثر تأثيرا في المشروع الثقافي العالمي ، وذلك كوسيلة لتوفير الفهم المتبادل بين البشر من أجل إقرار الأمن الدولي ، والسلام العالمي.

العولمة الثقافية تعبر عن نشوء ثقافة عالمية ، بغض النظر عن مصدر تلك الثقافة إن كان يفرضها المشاركون في العملية على من لا يشارك ، أو الذي ليست لديه القدرة على المشاركة ، فقد يكون مصدر هذه الثقافة أوروبي أو أمريكي أو مزيج من الاثنين ، ولكن المسألة كما يعتقد أصحاب هذا الرأي لا تكمن في أصل الثقافة الجديدة بقدر ما تكمن في قدرتها على الاحتراق والتأثير بفعل مكوناتها الذاتية أو على أقل تقدير تملك القدرة على المحافظة على خصوصيتها من الانقراض بفعل العزلة والتعالي والإفراط في التماهي(10).

4-1 مظاهر العولمة القيمية الفكرية : إن ما ساعد على فرض نمط قيمي عالمي هو طغيان ثقافة الصورة السمعية البصرية بوصفها وسيلة ضاغطة لتنميط الوعي والإدراك.

ويمكن ملاحظة مظاهر العولمة القيمية والفكرية فيما يلي :

- أصبح المواطنون أكثر تكويننا وأكثر إعلاما وأكثر وعيا وتمسكا بمطالبهم وحقوقهم.

- إظهار الشعور بالقلق المتزايد في المجتمعات القديمة من الإبداعات والابتكارات الجديدة بسبب انتقال المعرفة البشرية من مرحلة التأثير والتلاعب بها إنتاجا وتصنيعا وتسويقا... الخ.

- دور المؤسسات العمومية الغربية والدولية في نشر نموذج الليبرالية الاقتصادية التي تتجه نحو احتلال مكان الديمقراطية الاجتماعية التي تجسدت في دولة الرفاهية واقتصاد السوق الاجتماعي واقتصاد المشاركة أو الاقتصاد التضامني.
- التزايد الانفجاري لعدد الحركات الفكرية والطوائف العقدية ، وقد أحصى " أندري غارسيا " حوالي 10 آلاف حركة فكرية عقدية في العالم.
- العولمة الروحية والدينية وتزايد دور الأديان في النزاعات والعلاقات الدولية ، وتعدد المؤتمرات حول موضوع " حوار وصراع الأديان والحضارات " بحثا عن المعايير والقواسم المشتركة الأخلاقية والسياسية والقانونية.
- تزايد دور المنظمات غير الحكومية في الدفاع عن حقوق الإنسان والبيئة.
- المعالم ثالثة ، المطالبة بعولمة أكثر عدالة وإنسانية وديمقراطية.
- الاتجاه الأيكولوجي ، الطموح إلى عالمية مسئولة وتنمية مستدامة.
- المطالب المتزايدة من أجل إقرار مبدأ وسياسة التعددية الثقافية(11).
- إن الإستراتيجية الظاهرية للعولمة هو التعاون الدولي والاستفادة من مختلف الثقافات ، لكن الغرب لا يستطيع أن يعيش دون أن يخرق المجتمعات التي تريد المحافظة على الموروثات التاريخية والثقافية ، لأنه يعتبر ذلك نوعا من إحياء التوترات القديمة ، لذلك يعتمد سياسة اختراق جميع القارات ، عن طريق اعتماد إستراتيجية الإعلام بواسطة 500 شركة عولمة من الدول الصناعية الكبرى، حيث يدعمها بالإنفاق الواسع على البحث والتطوير في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات ، وخصوصا في إنتاج الحواسيب وبرمجياتها ، حيث تهيمن على جميع القطاعات من أجل الهيمنة الثقافية الغربية. ومن مظاهر هذه الهيمنة :
- السعي إلى تغيير القيم الدينية في الدول الإسلامية.
- منع اللغات الوطنية من النهوض بوظائفها الطبيعية والفكرية.
- استهداف الإسلام والمسلمين كأعداء جدد للغرب ، عن طريق التشكيك في الدين وتشويه رموزه وانتهاك الأديان عموما.
- ممارسة الإعلام الغربي الحملات تلو الأخرى ضد المسلمين وخصوصا بعد أحداث 11 ديسمبر 2001 ، وهي عبارة عن حملات عشواء ظالمة كشرت عن أنيابها فأصبحت تصف كل ما هو إسلامي بالإرهاب والتطرف والهمجية.
- تغيير ميزان القوى في العالم عن طريق التطور العلمي والتقني والتكنولوجي نتيجة الانجازات النوعية الضخمة ، الأمر الذي يوسع الفجوة التقنية بيننا وبين الغرب ، وإلى الشعور المتزايد بضرورة إدخال التقنيات الحديثة باسم مكتسبات العلوم والتكنولوجيا والتقدم في مجال الاتصالات وثورة المعلومات ، مما يؤدي إلى استيراد قيم ثقافية جديدة وتفتيت البنى الاجتماعية والثقافية المحلية ، ويساهم في حدوث تشويه في الهويات الثقافية المحلية ، عن طريق التأثير في الوجدان والفكر وطمس المعالم الثقافية ، وتجسيد محتوى الاغتراب الثقافي في شعور المجتمعات والشعوب ، لأن هناك جهات تعمل جاهدة وترتكب كل أنواع الجرائم الثقافية ، بهدف تحطيم الكيانات الوطنية ، والمس بالهوية الثقافية وثوابتها وكذا بالخصوصية الوطنية ، حيث تنشأ الأجيال مشتتة بين أنماط مختلفة من الآراء والأفكار والبيانات والمعلومات والأنساق القيمية المعتمدة ، مما يؤدي إلى التذبذب الفكري واليأس والأمراض النفسية التي تهدد شخصية شبابنا ونسائنا على حد سواء(12).
- ونحن نقول أن من أهم ظواهر العولمة ما يلي :

- الاختراق الثقافي الذي نتج عن تطور صناعة المعلومات والاتصالات ، وبناء شبكات الاتصالات الفضائية التي تعمل على التحكم في المعلومات والأخبار وبث الصور والأفلام.
- سيادة ثقافة الصورة وإضعاف الثقافة المكتوبة وتسطيح الوعي وتعزيز القيم الليبرالية وانتشار القيم الغربية في الفنون والبرامج الترفيهية وفي الزي والملابس والمأكول والمشرب واتساع السلوك الاستهلاكي.
- تكريس النموذج الحضاري الغربي والمتمثل في هيمنة الرأسمالية على الاقتصاد العالمي ومؤسساته الدولية وسيادة الثقافة الليبرالية ، مما يجعل الثقافات الأخرى في موقع التابع لها.
- ثالثا : تأثيرات العولمة على الثقافة العربية: يتحدد تأثير العولمة الثقافية بثورة المعلوماتية وأدواتها حيث تؤدي الفضائيات الإعلامية إضافة إلى البرمجيات المختلفة دورا أساسيا في التأثير على الثقافة المحلية في العالم ، ومنها الثقافة العربية ، ذلك أن الفضائيات تجعل الصورة والتأثيرات البصرية جوهر النظام الإعلامي الحديث ، مما يؤدي إلى انتقال الثقافة من شفوية وكتابية إلى سمعية وبصرية.
- وبالرغم من التأثيرات المتعددة للثقافة المعولمة وبخاصة ازدياد انتشار اللغة الإنجليزية في العالم وفي البلدان العربية وازدياد انتشار مهارات تكنولوجيا المعلومات ، فإن العولمة تمكن الأفراد في جميع أنحاء العالم من الحصول على المعلومات بسهولة من الفضائيات.
- وهناك تحدي آخر يتعلق بالحفاظ على التراث والهوية الوطنية مع الانضمام في الوقت ذاته إلى العالم المعاصر وتقنياته ، وهذا ما نجده عند اليابان والهند وتايلاند وغالبية الدول الآسيوية التي تتمسك بتراث الماضي والهوية الثقافية(13).
- إن مقولة الثقافة الكونية أو ثقافة العولمة جاء بها هؤلاء المتحمسون لفكرة العولمة ، ولكن الدارسين لها قد أثبتوا أن الثقافة في جوهرها لصيقة بال محلية وتعبير عن الهوية وتجسيد الخصوصية التاريخية والتراث واللغة والفكر والمعتقد ، ولذلك لا بد أن ننسب للفكرة القائلة بتلاقح الثقافات والحضارات ونحوها ، لأن الولايات المتحدة الأمريكية كما يقول الكاتب البروفيسور " تيودور ليفث " " تهيمن على حركة المرور الكونية في مجال المعلومات والأفكار ، فالموسيقى الأمريكية والأفلام الأمريكية والبرامج التلفزيونية الأمريكية وبرامج الحاسوب الأمريكية أصبحت شديدة الهيمنة ورائجة جدا ومشاهدة جدا ، حتى إنها توجد اليوم في كل مكان على الأرض بالمعنى الحرفي للكلمة وهي تؤثر فعليا في أذواق كل الأمم وحياتها وتطلعاتها...."(14).
- ويضيف " روثكوف " قائلا : " يقوم موجهو عملية العولمة المتسارعة اليوم بتحسين وسائل وأنظمة النقل الدولية ، ويبتكرون تقانات وخدمات ثورية جديدة في مجال المعلومات ، ويهيمنون على السوق الدولي للأفكار والخدمات ، وهو ما يؤثر في أسلوب الحياة والمعتقدات واللغة وكل مكونات الثقافة الأخرى".
- وباختصار فإن العولمة الثقافية تستهدف الهوية الثقافية الذاتية (الإسلامية) من خلال السيطرة على الإدراك (الذات والآخر) بحيث يتم إخضاع النفوس ، وتعطيل فاعلية العقل والتشويش على نظام القيم ، وتنميط الفروق ، وقولبة السلوك وفق إستراتيجية ثقافة الاختراق ، وتتولى هذه الوسيلة نشر وتكريس الأوهام التالية :
- وهم الفردية : أي اعتقاد المرء أن حقيقة وجوده محصورة في فرديته وأن كل ما عداه أجنبي عنه لا يعنيه ، وتهدف إشاعة هذا النوع من الوهم إلغاء الهوية الجماعية وكل إطار جماعي ، ما عدا الإطار العولمي المتلبس بالطابع الإنساني.
- وهم الخيار الشخصي : فباسم الحرية يجري تكريس النزعة الأنانية وطمس الروح الجماعية.
- وهم الحياد : بمعنى تحليل الشخص من كل التزام وارتباط بأثر قضية.

-وهم الاعتقاد بثبات البشرية وثبات الفوارق الاجتماعية(15).

رابعا : مستقبل هوية الجزائر الثقافية : تطمح العولمة إلى تشكيل نسق ملزم من القواعد الأخلاقية الكونية ، بالتركيز على صياغة ثقافة عالمية مندمجة ، لها قيمها وعاداتها وأخلاقياتها ومعاييرها لضبط سلوك الأفراد والشعوب والدول ، وبما أن التمييز الثقافي يتعارض مع الخصوصية والهوية الثقافية للشعوب ، فإن النمطية المطروحة تؤدي إلى تطويع الأفراد أينما كانوا ، وسلبهم إرادة الاختيار ، فالسلع والخدمات المستوردة وأنماط الإنتاج والاستهلاك تحمل معها ثقافة المجتمع القادمة منه ، مما يؤدي مستقبلا إلى تغير العادات والقيم والعلاقات ، أي تغيير ثقافة أفراد المجتمع إراديا أو لا إراديا.

وبذلك فإن التبادل الثقافي العالمي في مرحلة العولمة لا يؤدي إلى نمو الثقافة الوطنية والارتقاء بها إنسانيا ، وإنما يؤدي إلى نقيض هذه الثقافة وتسطيح الوعي الجماعي ، وتعطيل فاعلية العقل وتشويش نظام القيم ، الذوق والوعي والسلوك بحيث يسهل تكريس نوع من السلع والخدمات والأفكار ، وتعميم ثقافة الاستهلاك المعتمدة على الصوت والصورة التي تعمل على خلق حاجات الاستهلاك فحسب ، وتكوين أفراد لا يفكرون إلا بكيفية إشباع الحاجات الاستهلاكية المتنامية بسرعة ، وبكيفية الحصول على السلع المغرية الجديدة التي يروجها الإعلام ، بحيث تشكل صفة عالمية تشابه أنماط حياتها واستهلاكها وتوجهاتها أينما كان مواطنها.

ويبدو هذا التأثير الثقافي والإعلامي قويا في المجتمع الجزائري نظرا لقربها من المصادر الثقافية العالمية ، ويتوقف مستقبل هوية الجزائر على عوامل عديدة أهمها :

أ-وجود إرادة سياسية قوية تستمد شرعية قوتها من تفويض شعبي واسع في إطار برنامج وطني يتم الاتفاق عليه ، تبني هذه الإرادة منهج التغيير الذي ينسجم مع التطورات العالمية المستمرة.

ب-تبني سياسات علمية وثقافية تعبئ الطاقات تحافظ على الخصوصية القيمية والثقافية.

ج-بناء ثقافة الجزائر كجزء من الثقافة العربية وإعادة إحياء منظومة القيم الاجتماعية وتنمية وتعميق الوعي المدني وتطوير مؤسسات التكوين الثقافي والاجتماعي المتمثلة في الأسرة ، المدرسة ، الجامعة ، الأحزاب ، المؤسسات الإعلامية.

د-الابتعاد عن الموقف الرافض للعولمة دون العمل على مواجهتها فاعليا أو الموقف الذي يقبل العولمة دون تحفظات عليها(16).

خامسا : سبل مواجهة سلبيات العولمة : على الدول العربية أن تعمل على مد الجسور وإعطاء الأولوية لعمقها الثقافي والحضاري والتاريخي ، وتتمين هذه الأبعاد الإستراتيجية بشكل يجعلها تعلو فوق كل ظرف وعرضي في علاقاتها مع بعضها البعض والتخلص من عقدة الهوية والخصوصية الثقافية والاقتناع بحتمية المشاركة التي لا مفر منها في صنع الثقافة العالمية الجديدة ، والاعتقاد بأن أي تردد في هذا المجال لن يضيفي إلى نتيجة إن لم يؤدي إلى القضاء على الهوية والثقافة الذاتية ، وهذا ما يؤهلها للاندماج في المحيط الخارجي من موقع قوة وليس من موقع ضعف(17).

ونتمكن من الدخول إيجابيا في العولمة من خلال التعايش الإيجابي معها بحيث يجب أن نكون أقوياء ومتميزين ، والهداية تكون بتفعيل بعد العوربة ، هذا المفهوم الذي انطلق من الجزائر على لسان رئيسها بما يحمله من أبعاد ، فالتكتل الثقافي الذي يسوده التسامح الثقافي القائم على مبدأ النسبية الثقافية في مواجهة التزمت ، العنصرية والمركزية الثقافية على غرار التكتل الاقتصادي ، هو السلاح الوحيد الكفيل بمواجهة تحديات العولمة ، وعليه فإن الدعوة للتسلح وليس التقوقع بمقومات الشخصية العربية (العوربة) تبقى ملحة وعاجلة لكي نصون ونحافظ على هويتنا الثقافية الذاتية التي تميزنا عن غيرنا ، ندخل في حوار إيجابي مع الآخر بحيث نكون مساهمين وإيجابية وفعالية في هذه السيرة التاريخية ، من أجل أن

نؤثر ونضمن أن تظل هويتنا الجزائرية بأبعادها : الأمازيغية ، العربية ، الإسلامية ، قائمة متفاعلة مع الواقع الذي تفرضه العولمة (18).

- من جانب آخر فإنه أمام الجزائر والدول العربية قاطبة تحديات عديدة في مقدمتها أن تقوى على النهوض من ذاتها (الاعتماد على الذات) وتنمو نموا داخليا بجهد أبنائها ، من خلال الاعتماد على ما لديها من مقومات وطاقات وموارد وإمكانيات ، والتفاعل الإيجابي مع الثقافات الأخرى تجنباً للانغلاق والتحجر ، وهي دعوة لإعادة بناء الشخصية الثقافية والتمسك بها ، وفي نفس الوقت الدخول في حوار مع العولمة واستيعابها والتأثير فيها وعدم التأثير بها سلبيا. ويتطلب الحفاظ على الهوية الوطنية تحقيق جملة من الرهانات أهمها :

- إثراء شخصية الفرد الجزائري لتأكيد وعيه بعقيدته وعروبته وكرامته وقدرته على مواكبة التطور الإنساني المعاصر والمشاركة الفعالة فيه.

- تطوير البنى الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في الوطن بوصفها ركن البناء الحضاري.

- إبراز الهوية الحضارية العربية الإسلامية وتنميتها والحفاظة عليها بوصفها مستودع الأصالة.

- تأكيد الوحدة بين الشعب الجزائري.

- الحفاظ على اللغة العربية باعتبارها وعاء الثقافة الوطنية(19).

ويؤكد هذا الدكتور " مراد زعيمي " في مقال له بعنوان " الثقافة والعولمة : بين التكيف والتفاعل " حين يقول : " أنا أرى بأنه يجب التحرك وعدم الاكتفاء بالانتظار أو التكيف مع العولمة لأن ذلك لا يزيد أمورنا إلا تعقيدا ، وإذا كنا لا نستطيع مواجهة العولمة ، من خلال جهودنا كمجتمع صغير ، فإنه علينا أن نتكفل لمواجهة الظلم والتسلط والهيمنة والاستعلاء ، وعلينا أن نعمل داخليا على تحقيق الاستقرار والأمن لكل أفراد الشعب الجزائري ، والذي لا نوقعه إلا في ظل وحدة ثقافية تأخذ من الإسلام مصدرا وحيدا لكل التوجهات القيمية والممارسات الثقافية أي كنظام رائد ، أي علينا أن نأخذ من الإسلام قيمنا ونتمسك بها من خلال: عقيدته التي لا إكراه فيها ، وشريعته التي تحفظ كرامة الإنسان التي أرادها له خالقه ، وقيمه التي تتميز بأسمى المعاني وأنبهها"(20).

خاتمة : تشكل العولمة تحديا كبيرا للدول العربية عامة والجزائر خاصة ، ولذلك فإن الموقف الصحيح الذي نراه تجاه هذه الظاهرة الكونية ليس الاندماج الكلي المطلق لها والاستجابة لكل مقتضياتها ، وليس أيضا الانطواء والانغلاق والرفض والاتهام لكل تجلياتها ، وإنما إدارة العملية الثقافية والاقتصادية والإعلامية بالتواصل الإيجابي مع الآخر بحيث نستند في ذلك إلى صيغتنا الخاصة من العولمة على قاعدة الثوابت الإسلامية خير منهج أعد لكل البشر ، ولذلك فنحن نرى أن العولمة الثقافية لا تنتج ثقافة عالمية وإنما تنتج كوكبا تختلط فيه الثقافات وهي إما ستتعايش وإما سوف تتصارع ، وإما ستموت وتذوب في الثقافة القوية المسيطرة على حركة المرور الكونية الخاصة بالمعلومات والأفكار والقيم والخدمات ، والتي تتسم بتفوقها الثقافي في تقديم ثقافتها الرأسمالية اللبرالية.

ولذلك فإن قوتنا تكمن في تكتلنا كذلك ففي الاتحاد قوة ، وحتى لا ينطبق علينا قول " عزت السيد أحمد " إن الأمة التي تعجز عن المحافظة على جوهر كينونتها وروحها الحضاري ، والدفاع عن خصوصيتها أي القابلة للذوبان في أي محلول حضاري غريب عنها ليست جديرة بالبقاء ، ولن تجد من يأسف عليها".

الهوامش:

- 1- نعمان عباسي : العولمة الثقافية الغربية والهوية الإسلامية : الهيمنة الناعمة ، مخبر علم اجتماع الاتصال للبحث والترجمة ، سلسلة أعمال الملتقيات ، العولمة والهوية الثقافية ، 2010 ، ص 218.
- 2- خليل نوري مسيهر العاني : مستقبل الهوية الإسلامية في ظل العولمة الثقافية ، سلسلة الدراسات الإسلامية المعاصرة ، العراق ، ط1 ، 2009 ، ص 51.
- 3- محمد نجيب بوطالب : العولمة والتنوع الثقافي ، مجلة البحوث والدراسات الإنسانية ، منشورات جامعة 20 أوت 1955 ، سكيكدة ، الجزائر ، 2008 ، العدد 2 ، ص ص 31 ، 32.
- 4- رابع تركي : أصول التربية والتعليم ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط2 ، ص ص 360 ، 361.
- 5- علي غربي : العولمة وتحليلاتها ، منشورات جامعة قسنطينة ، الجزائر والعولمة ، 2001 ، ص 15.
- 6- عبد الكريم الوريكات : العولمة والتفاعل الحضاري : مجلة العلوم الإسلامية للبحوث والدراسات الإسلامية المقارنة ، جامعة الجزائر ، السنة الثالثة ، العدد السادس ، سبتمبر ، 2002 ، ص 148.
- 7- علي غربي : تنمية الموارد البشرية ، منشورات جامعة قسنطينة ، الجزائر ، 2004 ، ص 148.
- 8- سيد ياسين : في مفهوم العولمة ، المستقبل العربي ، العدد 228 ، فيفري 1998 ، ص 12.
- 9- حسين خريف : العولمة الإعلامية والهوية الثقافية ، مخبر علم اجتماع الاتصال للبحث والترجمة ، جامعة قسنطينة ، 2010 ، ص 179.
- 10- تركي الحمد : الثقافة العربية في عصر العولمة ، دار الساقى ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1999 ، ص 21.
- 11- قوي بوحنية : تنمية الموارد البشرية في ظل العولمة ومجتمع المعلومات ، مركز الكتاب الأكاديمي ، عمان ، ط1 ، 2010 ، ص ص 272 ، 273.
- 12- أحمد زردومي : منظمة اليونيسكو بين حماية الخصوصيات وأمل العولمة ، مخبر علم اجتماع الاتصال للبحث والترجمة ، سلسلة أعمال الملتقيات ، العولمة والهوية الثقافية ، 2010 ، ص ص 111 ، 112.
- 13- مجد الدين حمش : العولمة والمجتمع العربي ، مجلة العلوم الاجتماعية ، مجلس النشر العلمي ، جامعة الكويت ، العدد 4 ، المجلد 37 ، 2009 ، ص ص 63 ، 64.
- 14- ديفيد روثكوبف : في مديح الامبريالية الثقافية ، ترجمة أحمد خضر ، مجلة الثقافة العالمية ، العدد 85 ، ص 29.
- 15- نعمان عباسي : المرجع السابق ، ص 224.
- 16- كامل عمران : العولمة ومستقبل هوية الجزائر الثقافية ، منشورات جامعة قسنطينة ، الجزائر والعولمة ، 2001 ، ص ص 292 ، 293.
- 17- نور الدين بومهرة : العولمة وإشكالية الهوية (الهوية العربية نموذجاً) ، منشورات جامعة قسنطينة ، الجزائر والعولمة ، 2001 ، ص 220.
- 18- علي غربي : المرجع السابق ، ص ص 29 ، 30.
- 19- زوير زرزايحي : العولمة الإعلامية والهوية الثقافية في الجزائر ، مخبر علم اجتماع الاتصال للبحث والترجمة ، سلسلة أعمال الملتقيات ، العولمة والهوية الثقافية ، 2010 ، ص 258.
- 20- مراد زعيم : الثقافة والعولمة : بين التكيف والتفاعل ، منشورات جامعة قسنطينة ، الجزائر والعولمة ، 2001 ، ص 132.